

بين آدم وهواء

شروق العقل للدكتور زكي مبارك

أفاق آدم من غفوته عند قدوم حواء ، وكان المنتظر أن يتلقاها بالضم والتعجيل ، ولكنها عاجلته بضربة قاصمة هي تذكره بشجرة التين ، فقام قلبه بمد صفاء ، وعاد فانطوى على نفسه كما يصنع الأرقم في ليالي الشتاء .

— آدم ، مالي أراك شارد اللب ؟

— من القرح بقدمك بمد طول النياب !

— أنظر ، أنظر ، ألا ترى أنني صرت أنضر من أزهار

التفاح ؟

— وأحلى من أثمار التفاح !

— إذا ما هذا الحمود الذي يقاب قواك ؟

— ما أنا بنافل عن واجب الترحيب بهذا الجسم الفينان ، الجسم البديع الذي أضلني وهداني ، ولكنني تذكرت « صلاة الشكر » وهي صلاة لا تم بلا اعتكاف ، فإن رأيت أن تركيني وحدي لحظة أو لحظتين ...

— انتهاب الجبال هو في ذاته شكران لوأهب الجبال

— أبقض ما تكون المرأة حين تتفلسف ، فأركيني

لساقي ، وإلا مزجت الكوثر بدمك التجميع . إنصرفي ولا ترجعي إلا إن سمعت ندائي

« وخافت حواء عواقب هذه النضبة فوكت هاربة لا تلوى

على شيء وتركت آدم للصلاة ، وهي ترجو أن تكون صلاته

أقصر من الأمل في سيادة العذل »

فإذا وقع بعد انصراف حواء ؟

هل سلى آدم ؟ وكيف تصح له صلاة وقلبه يفور ، وعقله

يشور ؟

أخذ آدم يفكر فيما انتهى إليه أمره وأمر حواء ، فقد كانا

غاية في الطاعة والخضوع ، فما الذي جد حتى أصبحت غاية

في الترد والمصيان ؟

أيرجع السبب إلى وسوسة إبليس ؟

ولكن إبليس كان يوسوس منذ أزمان ولم يصل إلى شيء ،

فكيف وصل بعد اليأس ؟

هنا أدرك آدم أن السر يرجع إلى النمو الملحوظ في جسده

وجسد حواء ، وأيقن أن اضطراب الأجسام يصنع ما تعجز عنه

ألوف الأباليس ... وهل تنجح النزوات الخارجية إن لم تصادف

قبولاً من الأهواء الداخلية ؟

وزاد في اقتناع آدم بهذه النظرية ما كان يلاحظ على فصائل

الطير والحیوان ؟ فقد كان يشاهد أنها لينة رقيقة في أول عهدا

بالوجود ، ثم تغلب عليها القسوة والشراسة حين تصير إلى النضج

والاستحصاد !

وإذن ؟ وإذن يكون تطور الفاعلية الجسدية مصدر التطور في

الفاعلية العقلية !

ثم ؟

ثم يكون في كل تطور جديد إبليس جديد

وعلى هذا يكون لحواء في طفولتها عند مقبول

وما ذنب حواء ؟ ما ذنبها وقد استحالت إلى دوافع

ونوازع وأهواء ؟

نظرت مرة إلى نهر الكوثر في لحظة سكون فرأت خيال

وجهها الجليل وقد استدار في هالة من السحر والفتون ، فقدرت

أن سيكون لها تاريخ ، وعجبت من أن يتمنى آدم عن حننها

الفتان ، كأنها تجهل أن آدم صار العوية في زمامها المحبول

وخلاصة ما قرأت في كتاب شيث أن آدم لا يقيم وزناً

لنزغات إبليس ، وإنما يرى أن الجسد هو الأصل ، وأن ألقافه

مكونة من أباليس ، وأن ثمر الشجرة المحرمة قد يزيد قوة إلى

قوة ، وجموحاً إلى جموح

وهل غاب عن آدم أن ثمرات التين سريعة المطب والنساذ ؟

لقد تأملها مرة ومرتين ومرات ، ففرق أنها معرضة لأخطر

الجرائم ، وأدرك أن سمها قد يؤرث ما في الأجسام من السم

المكنون قستشرى وتهتاج^(١)

وإذا كان آدم يحجز عن رياضة حواء وهي صحيفة ، فكيف

بروضها وهي مريضة ؟

(١) تمرر هذه الفكرة أن الاعتراف في الطابع هو الأصل في

وقد قالت آدم أن جواء ضعيفة ، والضعف يتسلح بالرياء
والقول النصل أن آدم قد انتهى إلى حقيقة لا يحتاج إلى برهان ،
وهي صدور الأهواء عن الأجساد قبل صدورهما عن الأرواح ، لأن
الجسد أداة الروح ، ولأنه يحفظ قواها كما تحفظ الكأس سر الرحيق
ثم ماذا ؟ ثم التفت آدم إلى وحى النبوة فقال :

« لم أكن أدرك تكاليف النبوة حين أراد الله أن أكون
من الأنبياء ، فقد فهمت أول الأمر أن النبوة لا تصح إلا لمن
يقف موقف الراعي من الرعية ، وليس في الجنة جنود وأتباع
يحتاجون إلى من ينظر في شؤونهم بين اللدبر الحصيف ...
ثم عرفت أن الله جعلني نبياً لحكمة سامية : جواء شخص مفرد ،
ولكنها مؤلفة من شخص يدون بالآلوف ، بفضل ما يصطرع
في جسدها وروحها ، وقلبها وعقلها ، من أشنات النزاع
والأحاسيس ... هي شخص مفرد ، ولكن أوقاتي تضيق عن
الطب لأهواء ذلك الشخص المفرد ، فكيف أصنع لو أضيف إليها
أفراد يحملون ما تحمل من أوقار الثرق والطيض والجروح ؟ إنها
تتعبني في الحوار ، وأكاد أوقن بأن كل كلمة من كلماتها ترض
إلى شيء ، فهذه الكلمة عتاب ، وتلك الكلمة اتهام ، وهذا
اللفظ وعد ، وذلك اللفظ إغراء ، وذلك اللفظ تجريح ... ومن
عجيب الأمر في سياسة هذه الشقية أن خطبها لا يهون إلا حين
تنطق ، مع أن المفهوم أن نطقها في أغلب أحواله وعيد خفيف ...
أخطر ما تكون جواء حين تصمت ، فند ذلك أدرك أنها تضعر
أشياء ، وأنا أخاف أشد الخوف من النذير السموت ... لو أن
الله جعلني نبياً في أمة كثيرة العدد خلف الخطب وهان ، قد
كنت أستطيع الاجتنار بالنجز عن رعاية الآلوف من الرجال
والنساء ، ولكن الله جعلني نبياً على مخلوق تحار في رياضته
العقول ... من أي طريق أصل إلى اكتناه قلب جواء ؟ وكيف
أؤدي الواجب في تهذيب تلك الشقية ؟ وهل نجحت في التخلق
بأخلاق النبوة وأنا أروض تلك القرس الشموس ؟ الله يعلم أنني
لم أقصر ولم أفترط ، ولكن ما هذا البلاء ألقى أعانيه ؟ واجب
النبي أن يهدي الجميع في حدود ما يطيق ؛ وقد يتلطف الله به
حين يجز عن هداية من يجب ، لأنه يعلم أن الأجاب هم في الحقيقة
أعداء ؛ وهل يعرف مقاتل المحب غير الحبيب ؟ كان يكفي أن أعجز

خطرت لآدم هذه الخواطر وهو يبحث عن السر في تمرد
جواء ... لقد كانت طفلةً وديعة ، فكيف صارت امرأة خبيثة ؟
تطور الجسد صنع بها ما صنع ، فأمت وهي أخطر من الحية
التنضاض ، ولن يكون إبليس بأكثر من جواء ، بعد أن تبلغ
مبلغ النساء

وكان آدم يعرف أنه يجعل الجانب الأخطر من المسئولية ؛
فهو السبب الأصيل في تمرد جواء ، وبفضل شبابه وصياله ذقت
أفويق الضلال

والتي ينتظر أن تهدأ المرأة وأمام عينها رجل ، شبيهة بالتي
ينتظر أن تهدأ النار وقد أقيمت أكداً الحلفاء ... لقد كان
آدم يطرد جواء ثم تعود إليه لتأس بضربه الجميع ، كما ترجع
القراشة إلى أقباس اللهب

المرأة تدرك ما في الرجل من اللعاق ، ولو كان من الحاملين ،
فكيف تصد عنه وهو من الأنبياء ؟

كانت جواء سمحت أن الله لم يخلق آدم إلا بمد أن دار بينه
وبين الملائكة حوار طريف ، فكيف يفوتها أن تتضع بشهرته ،
وهي تعرف أن الشهرة منعم عظيم ، وإن اعتمدت على أذليل
وأباطيل ؟

وهل تقوم الشهرة بلا أصل ؟
إن آدم رجل ، والرجولة من أعظم الأرزاق ، فا زهدا فيه
وهو من أمثلة الغزاة والجيروت ؟ وهل تنسى أنه سرعها فوق شط
الكور أولف للرات ؟

القوة هي سحر آدم ، والضعف هو سر جواء ، والوجود
يقوم على أسس كثيرة ولكنها ترجع إلى أساسين هما القوة
والضعف ؛ والمشق المارم لا يقع إلا بين عاشقين مختلفين
في المرض والعلول ، والمهامة والجمال ، والقسوة واللين
ومع هذا كان آدم هو الياذي بإعلان شوقه إلى جواء ،
وكانت جواء تنكر شوقها إليه . وتفسير ذلك سهل : فأسرع
الناس إلى الاعتراف بالحق هم الأهواء

ويزعم شيت بن عمر بانوس أن آدم قال وهو يحاور تلك القلوب :
أما والله لو تجدين وجدى لطيرت إلى خالعة المنار (١)

(١) كذلك ورد هذا البيت في كتاب شيت ، ورواية الأغاني تخالف
عنه الرواية في السكعة الأولى من الشعر الثاني

عن هداية حواء فأسلمها إلى الشياطين ، ولكن البلاء كل البلاء . أن هذه المرأة لا تكفى بنجاتها من بدى ، وإنما تريد أن تضلنى فأكل معها التمر المتنوع ، وبهنا يصبح الهادى وهو من الصالحين إن نجحت حواء فى اختتالي واختلابى فساكون عبرة لمن يأتى بمدى من الأنبياء ... وهل أضمن حفظ مكاتى فى التاريخ ؟ إن تطاول الزمان فسيقول قوم إن آدم شخصية خرافية أريد بها تصوير انهزام الرجال أمام السماء . وهل يؤذبنى أن يقال ذلك ؟ أنا أول ضحية بشرية إن هزمتنى حواء ، ومن حق من يبحثون بمدى أن يتأبوا فى حقيقتى التاريخية . فالرجل الذى يعجز عن كبح المرأة لا يستحق شرف الوجود ... وأنا أعيد من تصل إليهم هذه الأخبار أن يسئوا الظن بمجدم الظلوم ، فليس عندى أوامر صريحة أتولى بها زجر حواء ، ولست أعرف المصير إن عاقبتها بالقتل ، فإلى صديق غير هذا المخلوق ، والصديق الواحد جدير بالاستبقاء وإن تردى بالعيوب . من أخصب تخير ، وأنا فى الصداقة مجذب لا مخصب . فهل ألام إذا استجرت المعصية طاعةً لمحبوب لا أجد غيره حين يضيع ؟ سأقرب الشجرة رعاية لحواء ، وليصنع الله بنا ما يشاء ... وماذا يريد الله ! أريد أن نشاركه فى السموات المطلق ؟ أريد أن نثزه كما نثزه عن جميع الشبهات ؟ أين نحن من الله وهو قوة أزلية لا يعترها نقص ولا تخود ؟ بأمر الله سأعصى الله فأقرب الشجرة مع حواء . سأعصيه بأمره وإن كان نهائى ، فهو يعلم أن المخلوق المؤلف من أحلام وأهواء لا يعظم عليه العصيان ^(١)

وانخرط آدم فى البكاء ، فلم يوقفه غير حواء

— آدم ، آدم ، ماذا بك ؟

— حواء ؟

— نعم ، حواء ، هل فرغت من صلاتك ؟

— أى صلاة ؟

— صلاة الشكر ، ألم تحدثنى أنك من أجلها أردت الاعتكاف

(١) هذه الوثيقة التاريخية تصهد بأن آدم ظل مدة طويلة فى أسر الفتن والحزن ، ومنها نرى أنه كان فى حراك دائم بين عقله وهواه ، وأن حواء لم تجتهد إلا بعد أن بذل فى جهادها فوق ما يطبق

— لقد صليت صلاة لا تخطر لك فى بال
— هل صليت كما تصلى الملائكة ؟
— أعظم مما يصلون
— وكيف ؟
— ناقشتُ الله !
— من ناقشَ الله هلك
— قولى هذا لنفسك ، يا حواء !
— أحب أن أعرف كيف تكون المجادلات من ضروب الصلوات ؟

— حين تكون شاهداً على شروق العقل

— لا أفهم ما تريد أن تقول

— أريد أن أقول : إن الله يكره لعباده أن يلوذوا بالصمت

والجمود

— ومعنى هذا أنه يجب أن تتكلم وتتحرك فى كل وقت ؟

— إذا أشار العقل

— وما العقل ؟

— أن تسكتى إلى الأبد الأبد !

— أريد أن تتمتع بنعمة الكلام وحدك ؟

— لأننى أشقى بنعمة العقل وحدى ، ولأن الله لن يسأل

غير « آدم » عن نطق « حواء »

— وما رأيك فى شجرة التين ؟

— المرأة حين تولع بشيىء لا تنفك تدور حوله . ولولهاها

عنه الأنبياء

— وأنت نبيى يا « آدم » ؟ لم يبق إلا هذا الزعم الطريف !

— إن صوت الله قرع أذنيك ولم تنتهى ، فهل تسمعين

صوت النبيى المسكين ؟ !

— ومتى نهانى الله عن الشجرة ؟

— كيف نسيت يا حواء أننا سمعنا ألف مرة هاتفاً يصيح :

« لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »

— هو ندائه موجه إليك

من كيد المرأة إلا العيين أو المخبوب

— أنت يا حواء شقية !

— وأنت يا آدم جهول !

ومرت لحظات صمت فيها آدم صمت الأموات ، ثم ناب إلى
صحوه فأيقن أن نجاته من كيد حواء أمل عزيز المنال ... ولكنه
جمع قواه ليصنعا عن التوايه بأسلوب لم يفكر فيه من قبل . فهل
يصل إلى ما يريد ؟

ذكي مبارك

« لتحدث شجون »

— إلى وحدي ؟ وكيف ؟

— لأنك وجل !

— وإذن يكون من حق أن أقرب الشجرة وحدي

— لن تذوق ثمرها إلا من يدي

— وهل أذوق من يديك غير الملقم والصاب ؟

— إسح يا آدم ، إسح : يظهر أنك أغلف القلب ، وأنت

في احتياج إلى من يزيل الفشاوة عن عينيك . ما هذا التمرد

على الله ؟ وما هذا العسيان ؟ مزيتك أنك رجل ، ورجولة آدم

رهينة بشهادة حواء ، ولن أعترف لك بشيء إلا إن غصبت

وغويت

— ويقول الله : وعسى آدم ربه فخرى ؟

— ومن أنت حتى تصل إلى أن يتالك الله بالنمز والتجريح ؟

— إسكتي ، يا حواء !

— لن أسكت قبل أن أزل قلبك جزاء بما احتكرت من

دعوى الفضيلة والشرف والنبل ؛ كأن سلوكي معك رذيلة وضمة

وإسفاف : أنت تصور نفسك دائماً بصورة المظلوم وتنسى أنك

في أغلب أحوالك من الظالمين

— ومتى ظلمتك ، يا حواء ؟

— حين تناسبت فضلي عليك ، فأما أضرم أهواءك لتشمر

بستفوان الرجولة الحق ، وستموت حسيماً ومعنوياً يوم أهجر عن

إغوائك . فيومذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس

بالمتم القليل

— كفي . كفي !

— لا ، لا ، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك

— أومن الفضل أن تربي للمصيبة ؟

— ما زيفت لك شيئاً غير جميل

— وشجرة التين ؟

— ما تهمني شجرة التين بالذات فسأطول هدايتك إن

استمتعت من شجرة الخبز ، لأنك تمل قلبك من مكان إلى مكان ،

ولأطمئن إلى أنك باقية يمسك في طليعة التمور ، فإ ينجو

إعلان

وزارة الزراعة

تقبل المطامات بإدارة المخازن

والمشتريات بالدق . لغاية ظهر يوم ١٥

أبريل سنة ١٩٤٢ . عن توريد كسب

بذرة كتان وكسب سمم وكسب بذرة

قطن للوقود والعليق وزيتون لأقسام

الوزارة . ويمكن الحصول على الشروط

والمواصفات من الإدارة للذكورة يومياً

ما عدا المطامات الرسمية مقابل دفع مبلغ

٣٠ ملياً بخلاف ٢٠ ملياً أجرة البريد